المسيحية والثورة
الحدث الداخلي وتداعياته الخارجية

وجيه يوسف
خبير العلاقات المسيحية-الإسلامية في هيئة
ScholarLeaders International

في ظلّ ما مرّ به العالم العربي في السنوات الماضية من أحداث ثورية وتغييرات سياسية غيّرت أنظمة حاكمة وأبدلتها، تسأل الكثيرون عن الموقف المسيحي من الثورة والحريات، وخاصة إزاء التباين الملحوظ في المواقف المسيحية الداعمة للثوار أو المساندة للأنظمة. ويبدو أن السبب الحقيقي وراء هذا السؤال هو الوقوف على فهم أعمق لما بدر من تصريحات، من بعض رجال الدين المسيحي، داعمة لأنظمة ثارت عليها شعوبها، وأسقطتها. في الواقع، تضاربت الإجابات المقدّمة واختلفت باختلاف البلد أو طبيعة العلاقة بين الكنيسة والدولة. فما هو الموقف المسيحي إزاء الثورة؟

بادئ بَدْءٍ، يجب ملاحظة أن المسيحية، مع أن لها موقفًا لاهوتيًّا يمسّ جميع مظاهر الحياة، إلا أنها لا تتخذ موقفًا سياسيًا معينًا يمكن أن يُشار إليه على أنه «الموقف» الرئيس الذي تتبناه المسيحية من السياسة. فالمسيحية، وإن كانت تتفاعل مع الحياة السياسية عن طريق مبادئ الملكوت، إلا أنها ليست «دينًا سياسيًا» بحصر اللفظ. المقصود هنا أن الانشغال الرئيس للمسيحية ليس السياسة، ولا إدارة حكم البلاد، ولا وضع شرائع تنظم الحياة العامة، وتضبطها؛ بل أن يكون بين الانسان والله سلامٌ حقيقي، وأن يعمّ هذا السلام، بدوره، البشر أجمعين في علاقاتهم وفي مجتمعاتهم. ولكن هذا لا يعني بالطبع أن المسيحية لا تتكلم ولا تتشابك مع القضايا التي يعيشها البشر. فملكوت الله غير محصور في مبنى الكنيسة! وهو يمتد ليشمل كل صغيرة وكبيرة في الحياة الإنسانية. هذا ما عبّر عنه الرسول بولس في قوله: «فَإِذَا كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ أَوْ تَشْرَبُونَ أَوْ تَفْعَلُونَ شَيْئًا، فَافْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ لِمَجْدِ اللهِ» (١ كو ١٠: ٣١).

كيف، إذن، يمكن أن نفكّر في الثورة من منظور مسيحي؟ وهل تشجّع المسيحية أتباعها على الانخراط في الثورات السياسية؟ وما هي الدعوات المسيحية للتحرر من القيود؟ لا يجب أن يفوتنا، مطلقًا، أن نذكر أن المسيحية تركّز أول كل شيء على قلب الإنسان، ومعركته الداخلية مع الشر والخطيئة. بهذا التركيز يتّضح لنا أن المسيحية تدعو لثورة داخلية تقلب موازين الأشياء، وتعطي الإنسان معيارًا جديدًا للحكم على الأمور والنظر إليها. إنها ثورة «ناعمة» على كل فساد ينخر في قلب الإنسان فينعكس، لا محالة، على العلاقات الإنسانية والمجتمعية الخارجية. فلا يصنع السلامَ مع الآخرين غير الذي له صار له السلام مع النفس، ومع الله. حين يتغيّر الداخل، يتبدّل الخارج. إن هذا المفهوم جدٌّ واضح في الكتاب المقدس، فها هو الرسول بولس يؤكد أن الأشياء العتيقة كلها قد مضت، فالكل صار جديدًا. و«الكل» هنا هو تلك النظرة الشاملة لمظاهر الحياة وتفاصيلها، هو منظار حكمنا على ما نفعل وما نرى حولنا. هذا المفهوم أساسي في معرض حديثنا عن الثورة والتحرر من منظور مسيحي؛ ذلك لأن المسيحية لا تنظر إلى المجتمع نظرة خارجية سطحية، ولا تعتقد أن الأفضل يأتي حين يتغير النظام أو يذهب هذا أو ذاك من كرسي الحكم. فالتغيير الاجتماعي الحقيقي في المسيحية هو الثورة التي تحدثها تعاليم المسيح داخليًّا في قلب الإنسان، ليرجع إلى الله، ومن ثم يتصالح مع نفسه، ومع الآخرين—الأمر الذي ينعكس بدوره على حياة المجتمعات عامةً. هذا ما عبّرت عنه الرسالة إلى ديوجينيتوس (القرن الثاني للميلاد) والتي أكدّت على حقيقتين متزامنتين: المسيحيون يعيشون في قلب المجتمع ولا يتغرّبون عنه، ولكنهم مغايرون في معاييرهم الأخلاقية عن بقية المجتمع. هذا ما مكّن المسيحيين أصلًا من الثورة ضدّ شرور المجتمع وانتهارها وانتقادها. لقد تغيّرت حياتهم، فصار ممكنًا لهم أن يتكلموا عن التغيير في المجتمع، وصارت ثورتهم على ما اعترى فساد المجتمع ذات مصداقية، ووجدت مَنْ يصغي لها، ويتغيّر.

ويمكن لنا، ببساطة، أن نقول إن هذه الثورة ثورة «لطيفة» أي صامتة. هي ثورة لا تحدث صخبًا، ولا تتسبب في سفك دم، أو ازهاق أرواح الناس؛ لأن هدفها هو الحياة الفُضلى، لا الموت. مثلُ الثورة المسيحية كمَثَلِ عمل الملح. عملُ الملح لطيف بسيط غير صاخب، لكنه مؤكد النتائج، ومضمون الثمر. لكن، لا ينجح الملح في عمله، إن كان فاسدًا. لا يصلح بعد لشيءٍ! أما الملح غير الفاسد فينقل عدم فساده، في ثورة بسيطة صامتة، لبقية الطعام فيصير الطعام كلّه مملحًا. جدير بالملاحظة أن هذا النوع

من العمل الثوري الصامت هو بالتأكيد «لا-عُنفيّ.» وهذا ما تكلّم عنه ونادى به كثير من المفكرين واللاهوتيين المسيحيين كديتريخ بونهوفر ومارتن لوثر كينج. وربما يظهر للبعض أن ثمّة تناقضًا في هذه الفكرة. فكيف للثورة أن تكون خالية من العنف والصخب؟ معروف أن الثورات تشبه البراكين في قوتها. لكن ليست هكذا الثورة المسيحية. الملحُ، نموذجُ الثورة المسيحية، يعمل في صمت، ولا يُحدث ضجيجًا، ولا يُسبّب صخبًا البتة. كذلك، فالملح لا يملّح جزءًا واحدًا من الطعام دون بقية الطعام. الانغماس المسيحي في الثورة على كل مظاهر المفاسد في المجتمع تُستعلن بنفس الكيفية. إن ملكوت الله، كما سبقت الإشارة، يمتد ليشمل كل مظاهر الحياة، وبالتالي فالمسيحيون مدعوون لأن يثوروا على كل المظالم، لأن نظرتهم عن ملكوت الله نظرة شمولية. وبالتالي، لا يجب أن تنحصر الثورة في جانب واحد من جوانب الحياة، بل تكون شاملة لكل شيء، ومستعلنة في كل مناحي الحياة. يقول دستور الكنيسة الإنجيلية في مصر، في المادة ٣٨: «إن من أهم واجبات الكنيسة أن تؤدي شهادة صريحة بأن مبادئ المحبة والعدل المسيحية يجب أن تظهر ظهورًا بارزًا في كل العلاقات شخصية كانت، أو صناعية، أو تجارية، أو مدنية، أو قومية، أو دولية.» إن هذا التعبير عن شمولية عمل الثورة المسيحية من شأنه أن يجعل انشغال المسيحيين بشتى مجالات الحياة موضوعًا لا جدال حوله. فالمدرّس الذي يثور على طرائق التعليم البالية؛ والعامل الذي يثور ساعيًا لتحسين أحوال العمال في المصانع؛ والبرلماني الذي يثور مناديًا بالأفضل لأعضاء دائرته الانتخابية؛ والطبيب الذي يثور على الأوضاع الطبية الفاسدة في المصحّة—كل هؤلاء يعملون في إطار ملكوت الله، ويثورون من أجل تحقيق قيم كتابية من شأنها تحسين حياة العباد والارتقاء بحال البلاد.

يتضح لنا أيضًا أن الثورة المسيحية هي ثورة بنّاءة تسير في اتجاه معروف المعالم. وهي بالتأكيد ثورة تنطلق من مبادئ كتابية، ولكن لأن هذا المبادئ غالبًا ما تصطدم بأفكار العالم ومنظوره للأمور، فتأخذ الثورة المسيحية بُعدًا «مخالفًا» للعالم. وهذا ما يمكن أن نسميه ثورة «عكس-حضارية.» والمقصود هنا أن الثورة المسيحية في شموليتها تثور لتصحح الأوضاع المعكوسة، ومضادة للواقع الحضاري السائد في المجتمعات البشرية. إن هذا السير عكس الاتجاه هو في الواقع سير في الاتجاه الصحيح بهدف تعديل المسار، والرجوع بالأمور إلى ما كانت عليه، أو ما يجب أن تكون عليه.

ولنتذكّر هنا عصر الإصلاح الديني. صارت الأمور عكس ما يجب أن تكون عليه، فتغوَّلَ الإكليروس في حياة الناس حتى منعوهم من قراءة كلمة الله، وفرضوا عليهم ما لم يقله الكتاب مطلقًا، ووضعوا على كاهلهم أثقالًا لا تُحتمل. وإذ ثار المصلحون، وضعوا كلمة الله بلغة الشعب المحلية؛ فترجم يوحنا ويكليف الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية، بينما ترجم مارتن لوثر كلمة الله إلى اللغة الألمانية. ونادى جميع المصلحين، ومن أتوا بعدهم من رجالات ذاك العصر، بتحرير الإنسان من قبضة الوسطاء الدينيين، والتركيز على أن الطريق إلى الله كرّسه المسيح على الصليب، وجعله ممكنًا. وكان لهذا الأفكار الثورية الدور العظيم في احداث الثورة التي شهدتها أوروبا، بل والعالم كله، بعد كل ما أصاب الناس في فترة ما قبل عصر الإصلاح الديني. إن طبيعة الثورة المسيحية «العكس-الحضارية» هذه تذكّرنا مرة أخرى بطبيعة الكنيسة التي هي في العالم (تعيش في ثقافة العالم وحضارته) ولكنها ليست من العالم (فكيانها ومبادئها تفوق معايير العالم).

ولكن لا يمكن أن ننسى أن هذه المسيرة المضادة للعالم في كثير من القيم والمعايير تأتي بكلفة وثمن باهظ غالبًا. لقد ثار يوحنا المعمدان ضد الحاكم من أجل تعدي الأخير على الأعراف والأخلاق، وكان المعمدان يصرخ في وجه هيرودس أنتيباس بأن ما هو مزمع أن يفعله لا يجوز ولا يحق. وبعد أن زُجّ به في السجن، دفع المعمدان حياته ثمنًا لهذه المعارضة (مر ٦: ١٤-٢٨). وها هو ديتريخ بونهوفر يلاقي نفس المصير، ولكن هذه المرة على يد هتلر النازي، لأن ديتريخ عارض السياسات النازية. فألقي القبض على بونهوفر، وأُعدم. هذا الثمن باهظ الكلفة. ولا يقدر الكل على دفعه. لكن، لا مفر من ذلك! هذه هي طبيعة العمل الثوري للكنيسة والذي يضعها غالبًا في مضادة مع الحضارة المحيطة، ويجعلها تنتقد شرور هذه الحضارة، وتسعى لتغييرها.

يمكن أن نسمّي هذه المزيّة «الصوت النبوي.» ومرجعنا هنا هو أنبياء العهد القديم، الذين كثيرًا ما وقفوا ضد الملوك الفاسدين، موبّخين إياهم، وكاشفين شرورهم التي أضرّت بالمجتمع، وأفسدت علاقة الناس بالله. فهذا عاموس النبي يصرخ في وجه المظالم

الاجتماعية؛ والنبي ميخا يصرخ ضد التعالي ويدعو للرحمة والحق طريقًا يرضاه الله؛ وصفنيا النبي يحذّر بأشد العبارات من العواقب الوخيمة التي تنتظر سوء السبيل، بعيدًا عن طرق الله—تعالى. كل هذه الأصوات كانت مكلفة، ودفع أصحابها ثمنًا باهظًا، من رفضٍ واضطهاد. وفي العصر الحديث صرخت الكنيسة مرارًا ضد مظالم اجتماعية وثارت عليها، فقادت، على سبيل المثال، عملية تحرير العبيد (راجع مثلاً: www.jstor.org/stable/٢٣٨٩٥٥٠١). هذا لا يعني بالطبع أن الكنيسة نجحت تمامًا في ثورتها؛ فثمة كنائس كثيرة، ولأسباب متعددة ومتباينة، لا تملك شجاعة الصوت النبوي الذي نتحدث عنه. لكن ما يعطي الكنيسة ناجحًا في صوتها النبوي ونورها وملحها في المجتمع هو الوقوف الواعي على ماهية الكنيسة، وعلى المشاكل التي يعاني منها المجتمع. فالكنيسة التي لا تعي نفسها، لن تعي احتياجات الواقع ومشاكله ومظالمه، وبالتالي لن تثور. ستظل مثل هذه الكنيسة على هامش المجتمع، غير فاعلة، وغير مُتحدثة. وعلى الكنيسة أيضًا، إذ تفكّر في الثورة أن تكون مفتوحة الأعين لترى المجتمع عن قرب، وأن تكون أذنيها مصغية لصراخات المساكين والمستضعفين في الأرض. فالكنيسة التي لا تَسمع لن يُسمع لها؛ والكنيسة التي لا تَرى، لن تُرى فاعلةً في المجتمع. والصمت هو عدو الثورة الأول.

الثورة في مفهومها المسيحي هي حركة «ناعمة» داخلية تصدر من قلب شهد ثورة تصحيح وتغيير وتنطلق لتُحدث فرقًا «لا عُنفي» في المجتمع، دون صخب أو ضوضاء. ولن يتأتّى ذلك الدور الثوريّ (النبويّ) للكنيسة دون أن تصلح نفسها أولًا قبل أن تسعى لإصلاح غيرها. فإصلاح النفس ضامن نجاح إصلاح الغير، كما قال ربّ الكنيسة ذاته: «لِمَاذَا تَنْظُرُ الْقَذَى الَّذِي فِي عَيْنِ أَخِيكَ، وَأَمَّا الْخَشَبَةُ الَّتِي فِي عَيْنِكَ فَلاَ تَفْطَنُ لَهَا؟» (لو ٦: ٤١). وإن فشلت الكنيسة في ذلك، فشلت في ثورتها، وصارت محبتها للمجتمع «صنجًا يرن» لا أكثر.

أخيرًا، يبقى المسيحُ مثالنا الأوحد. فهو الذي إذ رأى المظالم الاقتصادية والفساد الديني في الهيكل، ثار بحدّة على الذي حولّوا بيت الله لمغارة لصوص، وقلب موائد الصيارفة. وأعاد الأمور إلى ما يجب أن تكون عليه: أن يرجع الهيكل ليكون بيت الصلاة، لا مكان فيه للتجارة أو البيع أو الشراء. إن ثورة المسيح هذه كانت أيضًا مكلفة. فالصليب كان الثمن. وكان الثمن الباهظ هذا عربون النجاح، فامتدت كنيسته في كل ربوع العالم، وغيّرت قِيَمُ إنجيله طبيعة المجتمعات، وشكلّت حياة الملايين.